الحج الى بريست ليتوفسك (*)

(الى تانيوشكا وسريوجا ويوكيكو)

يسقط جسدي المفلوج بالسفر والحزن
قطرة دم أخيرة
على رصيف بريست ليتوفسك ..
القطار يرتعش مثل ندبة قديمه
على جسد المدينة المتشابكة كأصابع اليدين
بين الواقع والاسطورة ..

---

* بريست ليتوفسك مدينة سوفييتية على حدود الاتحاد السوفييتي الغربية، تنهض فيها قلعة تاريخية. في الحرب العالمية الأخيرة سجلت حامية القلعة صموداً يشبه الأساطير، في وجه قوات الغزو الهتلرية، وأصبحت بريست ليتوفسك علما خالداً في تاريخ بطولات الشعوب.

(الجديد ـ ٢/١٩٧٣)

ههنا سقط التوقع
تحطمت الارقام القياسية
ههنا اندغمت الطفولة بالرجوله
والرجولة بالموت
والموت بالحياة ..
ههنا تعطل الانسان فجأة
عن الاصغاء لاحزان تشايكوفسكي
وراح يقضم طعام الخيول المجفف ..
هنا مزقت النساء ثياب اعراسهن
لاخماد حرائق الجراح
ههنا انسحق الانسان على اعقاب البنادق
هنا اورقت وأزهرت وأثمرت
أعقاب البنادق
هنا الختام وهنا البدء
هذه الاعجوبة الوادعة
مزهرية الدم ، ومزهرية الزهور !

بريست ليتوفسك
يا حديقة الخبز المسيجة بقامات الشهداء
أيتها القلعة الرثه
كراية ارهقتها الزوابع ،
بريست ليتوفسك
ما زلت قميص الشعوب
ومدفأة الشعوب ورغيف الشعوب وكتاب الشعوب !

يتلجلج صوتي القادم من اغوار معتمة
حشرجة جندي مرابط
في خندق رطب تحت الانقاض الملتهبة
ويجتهد صوتي كتلميذ ، لتسمعه يوكيكو

« يوكيكو ساتومي
مواطنة يابانية ، ولدت يوم موت هيروشيما
يوكيكو تعني ابنة الثلوج
وهي لن تراني بعد اليوم
لأنها سافرت من طوكيو الى لندن
لتتقن اللغة الانكليزية ! »

يوكيكو يا عزيزتي لثلاثة ايام والى الأبد

أشهد ان اسمك جميل وأشهد انك جميله
ضعي يدك الشاحبة الصغيره
في يدي التي لا لون لها
وتعالي نسلم على أبطال بريست ليتوفسك
واحداً واحداً نسلم عليهم
بينما تصطف دموعنا كحرس الشرف

الحرب ؟
تتساءل يوكيكو
كيف وصلت الى هنا ؟
هل سافرت مثلي في القطار السريع ؟
هل جاءت من هيروشيما لتتعلم اللغة الروسية ؟

بين وجهينا انفاس مشتعله
وستارة من الندى والضباب ..
الوجوه السوفييتية الوادعة
تحدق فينا بالدهشة والانوف المتوردة

ـ من انت ايها الشاب
يا من تلف عنقك بكوفية حمراء ؟
ومن تكونين
يا صاحبة الشعر الأسود اللامع
والعينين المنحرفتين
كعصفورين حالمين تحت سماء منخفضة ؟
ـ نحن ذاكرة العالم المفقوده
نحن ميدالياته المعروضة في سوق الأثريات
نحن حزن العالم وفرحه
نحن ذاكرة العالم !

يد يوكيكو في يدي
آثار أقدامنا
تلهث على الثلج الهش
وتترك وشمها السري
على زند «اطلس» ـ ذلك العربيد الضال منذ القدم !
ستكونين صديقة طفولتي وحكمة الشيخوخه

يا ابنة الثلوج العالية المجهولة
حيث تترك العصافير ووعول الجبل
أشعارها المسماريه
ولوحات سليقتها المذهلة ..

يو ... كي .... كو !
ياله من اسم قاس
في حضرة الطائرات والمدافع المضادة للطائرات
بقي سؤال واحد
نرفعه معاً الى مدير المتحف العجوز الطيب :
أيها الرفيق الناضج مثل تفاحة
المثابر مثل قلب ،
هذه الممرات المرصوفة بحب وعنايه ،
من يغطيها بمعطفه في أيام الصقيع الكثيرة ؟

يوكيكو توبخ شعرها الصاخب
فأحميه منها بضمة ساعد

أدثره بكوفيتي الحمراء
ورأسها جميل
كرأس يابانية مسافرة في القطار السريع ..
يوكيكو تخدش باطن كفي اليمنى
بأظافرها الناعمة كاسمها البيضاء كاسمها
ـ الاسم « نتاشا » ،
هل يعني بالنسبة لك شيئاً
ـ نعم
نتاشا هي يوكيكو الروسيه
تماما كما نقول :
يوكيكو هي نتاشا اليابانيه !
ونضحك بلا تهذيب
نضحك مهملين دموعنا المرتجفة في الصقيع
لأن طفلا أزرق العينين
يمسك بتلابيب جدته
ويقفز على الثلج
تحت السماء الزرقاء ..